ترجمـات

الثقافـــة الشعبيـــة لا تـــزال عاجـــزة عن استيعاب حروب الطائرات المسيّرة

بقلـــم

كريستيـــان كاريـــل

ترجمة: صفـــا مهـــدي عسكـــر

تحرير: د. عمار عباس الشاهين

مركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية

2026

تأسس مركز حمورابي للبحوث والدراسات الإستراتيجية عام 2008 بمدينة بابل (الحلة)، وحصل على شهادة التسجيل من دائرة المنظمات غير الحكومية المرقمة 1Z71874 بتاريخ 2012/12/25، بوصفه مركزا علميا بحثيا يهتم بدراسة الموضوعات السياسية والمجتمعية، فضلاً عن الاهتمام بالقضايا والظواهر الراهنة والمحتملة في الشأن المحلي والإقليمي والدولي، ويتعامل مع باحثين من مختلف التخصصات داخل العراق وخارجه، وتحتضن بغداد المقر الرئيسي للمركز.

- لا يجوز إعادة نشر أي من هذه الأوراق البحثية الا بموافقة المركز، وبالإمكان الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملا.
- لا تعبر الآراء الواردة في الورقة البحثية عن الاتجاهات التي يتبناها المركز وانما تعبر عن رأي كاتبها.
- حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية.

للتواصل

العراق - بغداد - الكرادة

+964 7810234002

hcrsiraq@yahoo.com

www.hcrsiraq.net

مركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية

لم يعد الخبراء العسكريون يتحدثون كثيراً عن «خط المواجهة» في الحرب الدائرة في أوكرانيا، بل باتوا يفضلون استخدام مصطلح «منطقة القتل»، لوصف المنطقة العازلة التي يتراوح عرضها بين 10 و20 ميلاً، وتمتد بين الجيشين المتحاربين. ويعود هذا التحول في المفهوم إلى سبب بسيط، هو أن المراقبة المستمرة التي تتيحها الطائرات المسيّرة باتت تجعل اقتراب أي طرف من المناطق الخاضعة لسيطرة العدو أمراً شبه مستحيل من دون رصده.

لكن يبدو أن هوليوود لم تستوعب هذه الحقيقة بعد. ففي إحدى الحلقات الأخيرة من المسلسل التلفزيوني الناجح «لايونِس»، تقود الشخصية التي تؤدي دورها زوي سالدانيا مجموعة صغيرة من العملاء الأميركيين السريين في مهمة سرية للقبض على جاسوس معادٍ يوجد برفقة القوات الروسية في أوكرانيا. ولتنفيذ المهمة، يتعين على الأميركيين عبور المنطقة من الجانب الأوكراني إلى الجانب الروسي، وهو ما يفعلونه ببساطة سيراً على الأقدام، وفي وضح النهار، وهم متقاربون بعضهم من بعض في مجموعة متراصة. وفي الواقع، كان من شأنهم أن يتعرضوا لوابل من الضربات بطائرات مسيّرة انتحارية أو بقذائف المدفعية، فور شروعهم في التقدم. وإلى جانب ذلك، تمتلئ السماء فوقهم بأعداد هائلة من الطائرات المسيّرة، على نحو يستحضر عروض الأضواء المبهرة التي تُنفذ باستخدام أسراب من المسيّرات. لكن هذا بعيد كل البعد عن أسلوب العمليات المعتمد في أوكرانيا؛ إذ لا حاجة إلى أسراب ضخمة لإبقاء منطقة واسعة تحت المراقبة، فوجود عدد من مشغّلي الطائرات المسيّرة، يتولى كل منهم تمشيط قطاع محدد، يكفي لتحقيق ذلك. ومما يزيد المشهد عبثية أن شخصية سالدانيا وفريقها لا يتعرضون للهجوم إلا في طريق عودتهم من المهمة. **فهل استغرق الأمر كل هذا الوقت حتى تكتشفهم القوات الروسية؟**

لكن ربما يجدر منح صنّاع مسلسل «لايونِس» بعض التقدير لمجرد تطرقهم إلى هذا الموضوع. فبعد مرور أربع سنوات ونصف السنة على بدء الغزو الروسي الشامل لأوكرانيا، لا تزال الأعمال الثقافية التي تصور الكيفية الفعلية التي تُخاض بها الحرب شحيحة بصورة لافتة. وقدّم عدد قليل من الصحفيين روايات متينة عن الصراع من واقع تجربتهم المباشرة، فيما تناول صناع الأفلام الوثائقية، وكثير منهم أوكرانيون، مجرياته بقدر مذهل من القرب والتفصيل. ومع ذلك، لم تصل هذه الأعمال **إلا إلى جماهير محدودة نسبياً. فأين القصص المشوقة التي يمكن أن تجذب جمهوراً أوسع؟**

لقد تركت الطائرات المسيّرة القتالية بصمتها بالفعل في الثقافة الجماهيرية. فهي حاضرة في كل مكان، بدءاً من أفلام مثل «القائمة النهائية: الذئب الأسود»، حيث يستخدم قاتل طائرة مسيّرة لتفجير سيارة، وصولاً إلى مسلسل التحقيقات الشرطية الذي تنتجه هيئة الإذاعة البريطانية «فيجيل»، ويتضمن مشهداً تُستخدم فيه الطائرات المسيّرة العسكرية ضد قواتها نفسها، بعد أن يخترق أحد القراصنة المعادين أنظمتها. ومن اللافت أيضاً تكرار ظهور الطائرات المسيّرة في أفلام الخيال العلمي ذات الطابع الديستوبي، مثل فيلم «ذا غورج»، الذي يواجه فيه

---

* By Christian Caryl, Pop Culture Still Can't Figure Out Drone Warfare, Foreign Policy, November 20, 2026.

قناصان طائرات مسيّرة ذاتية التشغيل، وفيلم «ذا أوتر ثريت»، الذي يضطر فيه رجل يخفي سراً مثيراً إلى حماية أسرته من حكومة معادية تمتلك أسراباً من الطائرات المسيّرة. قبل بضع سنوات، ربما كانت تصاميم الطائرات المسيّرة في هذه الأفلام تحاكي الطائرات فائقة التطور الهندسي التي استُخدمت فيما عُرف بـ«الحرب العالمية على الإرهاب». أما الآن، فيبدو أن صناع الخيال العلمي أنفسهم باتوا يفضلون الطائرات الصغيرة رباعية المراوح، المشابهة لتلك التي يستخدمها الأوكرانيون في حربهم ضد روسيا. ومع ذلك، لا تتناول سوى قلة من هذه الأعمال الحرب بصورة مباشرة.

ويرى اللواء الأسترالي المتقاعد ميك رايان، الذي يتابع الحرب في أوكرانيا عن كثب، أن الثقافة الشعبية يمكن أن تكون وسيلة مفيدة لمساعدة السياسيين والجمهور على مواكبة التطورات في ساحة المعركة. وقال: «إن العقيدة العسكرية بعيدة عن متناول معظم الناس، بمن فيهم كثيرون من العاملين في المؤسسة العسكرية. وسواء تعلق الأمر بالأفلام أو التلفزيون أو الكتب أو المدونات الصوتية، فإن الثقافة الشعبية يمكن أن تكون وسيلة ممتازة لجعل التداخلات المعقدة بين الجوانب العسكرية والتكنولوجية مفهومة لشريحة أوسع من الناس». ولا يكتفي رايان بالدعوة إلى ذلك، بل يطبق ما يدعو إليه عملياً؛ إذ ألّف رواية تخيّلية ممتازة بعنوان «حرب الشمس البيضاء»، تتناول صراعاً افتراضياً حول تايوان، وتتضمن مشاهد مفصلة لقوات صينية وأميركية تخوض القتال بمساعدة مركبات برية ذاتية التشغيل وغير مأهولة. وتتجاوز التكنولوجيا التي يصورها رايان في روايته ما طورته روسيا وأوكرانيا في حربهما، لكن الفارق ليس كبيراً.

هل يمكن أن تكون حرب الطائرات المسيّرة معقدة إلى حد يجعل من الصعب توظيفها في سرد قصصي مشوّق؟

حتى الآن، استخدم طرفا الحرب الروسية الأوكرانية طيفاً واسعاً من الطائرات المسيّرة في البر والبحر والجو. ولا تعمل أي من هذه الطائرات بمعزل عن غيرها، بل تشكل جزءاً من منظومات ميدانية معقدة تشمل الاستطلاع والهجوم، وإيصال الإمدادات على نحو متزايد. ومؤخراً، بدأ الأوكرانيون يستخدمون أيضاً طائرات مسيّرة برية لإجلاء الجنود المصابين. وقد دفعت حدة الصراع وتيرته إلى تسارع مذهل في الابتكار، شمل في كثير من الأحيان تفاصيل تقنية معقدة تتعلق بالحفاظ على اتصالات موثوقة ودقة الاستهداف في بيئات مشبعة بإجراءات الحرب الإلكترونية. وشملت الاستجابات تطوير طائرات مسيّرة تُوجَّه عبر كابلات الألياف الضوئية، التي لا يمكن التشويش عليها خلافاً للإشارات اللاسلكية، فضلاً عن تزايد الاعتماد على أنظمة الذكاء الاصطناعي القادرة على إبقاء الطائرات المسيّرة موجهة نحو أهدافها حتى عند انقطاع الاتصال بمشغّليها.

ولعل صعوبة مواكبة هذه التطورات من جانب غير المتخصصين ليست أمراً مستغرباً. ففي تشرين الأول، أصدرت شركة «أكتيفيجن» لألعاب الفيديو لعبة «نداء الواجب: الحرب الحديثة 4»، وهي أحدث إصدارات سلسلتها الشهيرة والمستمرة منذ سنوات. (وللتذكير، فإن حجم صناعة الألعاب الإلكترونية عالمياً يفوق بكثير حجم صناعة السينما). وتدور أحداث اللعبة حول غزو كوري شمالي متخيّل لكوريا الجنوبية، فيما جاء تصويرها للاشتباكات العنيفة التي قد تنجم عن مثل هذا الصراع مقنعاً إلى حد لافت. وقد بذل مطوّرو اللعبة جهداً كبيراً لضمان دقة

التفاصيل، حتى إنهم استعانوا بمدرب لهجات لتقديم المشورة بشأن الاختلافات بين أنماط اللغة الكورية التي تتحدث بها الشخصيات.

لكن بالنظر إلى الجهد الذي بذله مصممو اللعبة لتحقيق أعلى درجات الواقعية، يبدو غريباً على نحو أكبر أن يكون حضور الطائرات المسيّرة فيها محدوداً للغاية. ويزداد هذا الإغفال غرابة إذا أخذنا في الحسبان أن كوريا الشمالية أرسلت أعداداً كبيرة من قواتها لمساعدة روسيا في حربها ضد أوكرانيا، جزئياً كي تتعلم قوات كيم جونغ أون تفاصيل حرب الطائرات المسيّرة وتعقيداتها. ويبدو أن مطوّري اللعبة لم يلتفتوا إلى هذه الحقيقة. فعندما تتصدى قوات كورية جنوبية وأميركية للغزو عبر هجوم مضاد برمائي، تستحضر شدة المعارك المشاهد الافتتاحية لفيلم «إنقاذ الجندي رايان». ومع ذلك، لا يستخدم أي من الطرفين طائرات مسيّرة برية أو جوية، رغم أن هذا النوع من القتال تحديداً هو ما تسعى الجيوش الحديثة جاهدة إلى إدماج الدروس المستفادة من حرب أوكرانيا في أساليب خوضه.

ويكمن جزء من المشكلة، بلا شك، في أن الطبيعة البعيدة للتحكم بالطائرات المسيّرة الحديثة، وما تتسم به من طابع مجهول الهوية ظاهرياً، تحدّ من إمكاناتها السردية. فكثيراً ما تتطلب العمليات الفعلية للطائرات المسيّرة عمليات بحث طويلة ودقيقة، وفترات تحليق ومراقبة ممتدة، وهي أمور لا توفر بالضبط عناصر الإثارة الدرامية. أما مقاطع الفيديو التي توثق الهجمات الوحشية بالطائرات المسيّرة الأوكرانية، والتي باتت تنتشر على نطاق واسع في وسائل التواصل الاجتماعي، فلا تعرض سوى اللحظات الحاسمة التي تأتي بعد ساعات طويلة من التحضير الدقيق والاستطلاع. وربما يفسر ذلك لجوء بعض مصممي ألعاب الفيديو إلى ابتكار طائرات مسيّرة مزودة برشاشات؛ وهو خيار عديم الجدوى عموماً في الواقع، لأن ارتداد الأسلحة النارية من شأنه أن يزعزع استقرار الطائرة المسيّرة، وربما يؤدي إلى تحطمها. لكن إطلاق النار يبدو أكثر إرضاءً وإثارة من إصابة هدف بعيد لا يمكن رؤيته إلا على شاشة.

ومن المفارقات اللافتة أن ألعاب الفيديو، رغم تقديمها صورة مشوهة إلى هذا الحد عن الحروب المعاصرة، أسهمت بصورة كبيرة في تشكيل أساليب حرب الطائرات المسيّرة. فكثيراً ما تُصمَّم وحدات التحكم بالطائرات المسيّرة العسكرية على غرار وحدات التحكم المستخدمة في الألعاب الإلكترونية، الأمر الذي يبسّط عملية التدريب إلى حد كبير.

وقد واجه صانعو الأفلام الأوكرانيون تحديات سردية مماثلة. فالفيلم الجديد المثير للاهتمام «كيلهاوس»، الذي أُنجز بالتعاون الوثيق مع الجيش الأوكراني، يضم مشاهد عديدة تنقل بوضوح الخصائص الفريدة لحرب الطائرات المسيّرة. وتتمحور أحداث الفيلم حول مصير زوجين مدنيين يستدرجهما مجرمون روس إلى المنطقة الرمادية الواقعة بين خطوط المواجهة، بعدما احتجزوا ابنتهما وطالبوا بفدية لإطلاق سراحها. وعلى خلاف الجنود الأميركيين الذين يعيشون في عالم من الاطمئنان في مسلسل «لايونس»، يُرصد الأب والأم اليائسان فور دخولهما المنطقة، من جانب القوات الروسية والأوكرانية على حد سواء. وسرعان ما يقصفهما الروس بالمدفعية، في حين

تضع القوات الأوكرانية خطة معقدة لإنقاذهما بمساعدة الطائرات المسيّرة، وإنقاذ ابنتهما في نهاية المطاف. ويصور أحد المشاهد، التي تحبس الأنفاس، مشغّلاً يحاول توجيه إحدى الشخصيات عبر حقل ألغام باستخدام طائرة مسيّرة، رغم عدم امتلاكه وسيلة واضحة للتواصل معها.

وكان من الأفضل لصنّاع الفيلم أن يتوقفوا عند هذا الحد، بعد أن عرضوا لنا طائرات مسيّرة حقيقية في مواقف واقعية. لكن المؤسف أنهم شعروا، على ما يبدو، بالحاجة إلى تعزيز التشويق في قصتهم عبر إدخال مجموعة من الطائرات المسيّرة غير الموجودة حتى الآن، والمزودة بأنظمة للتعرف على الوجوه وتحديد الأهداف. (وتُعد هذه القدرة مفيدة إلى حد كبير لدولة المراقبة الصينية؛ لكن لماذا قد تكون ضرورية في ساحة معركة لا تتوافر فيها إمكانية واسعة للوصول إلى قاعدة بيانات تضم وجوه الأعداء، فهذا أمر لا يزال غير واضح). وفي لحظة مواجهة حاسمة، لا تُستخدم هذه الطائرات المسيّرة فائقة التطور سوى كأداة للقوة الغاشمة، إذ توظَّف للقضاء على عدد من الجنود الروس، لتنتهي كل تلك المعدات المتطورة عملياً إلى أداء الوظيفة نفسها التي يمكن أن تؤديها بضعة أحجار كبيرة.

ربما لا تستحق أوجه القصور في الأفلام وألعاب الفيديو كل هذا الاهتمام. فليس مطلوباً من الأعمال الفنية أن تبلغ درجة فائقة من الواقعية، كما لا ينبغي المبالغة في تقدير مدى تأثير الثقافة الشعبية في قرارات صانعي السياسات. **لكن هل يُعقل أن يكون الأمر مجرد مصادفة أن الجيوش الغربية وصنّاع السياسات والسياسيين في الغرب لا يزالون، بعد كل هذه السنوات، عاجزين عن استخلاص دروس الحرب في أوكرانيا؟**

لا تزال القواعد العسكرية الأميركية والغربية الأخرى تعاني من اختراقات متكررة تنفذها طائرات مسيّرة مجهولة المصدر؛ والأمر الوحيد الواضح هو أن كثيراً من هذه الطائرات، المجهزة بقدرات تتيح لها مقاومة التشويش القوي، لا يشغّلها هواة. وخلال الأسابيع الأخيرة، أشارت القوات الجوية الأميركية إلى خطر هجمات الطائرات المسيّرة في سياق إنذارين رئيسيين على الأقل في قواعد جوية ببريطانيا. ويبدو أن صانعي القرار كانوا يستجيبون لمخاوف من احتمال شن إيران هجوماً يحاكي عملية «شبكة العنكبوت» الأوكرانية المذهلة، التي تمكنت خلالها أوكرانيا من تدمير عدد من القاذفات الروسية الاستراتيجية، عبر إطلاق طائرات مسيّرة جرى تهريبها إلى داخل روسيا على متن شاحنات نقل البضائع. كما شهدت الدول الأوروبية الأعضاء في حلف شمال الأطلسي اختراقات متعددة نفذتها طائرات مسيّرة، فضلاً عن تعرضها لهجمات فعلية. وحتى أستراليا اضطرت إلى التعامل مع مشاهدات غامضة لطائرات مسيّرة بالقرب من قواعدها العسكرية. إن هذه التكنولوجيا آخذة في الانتشار، ولم يعد من الممكن التقليل من شأن المشكلة أو تجاهلها.

ولا نزال ننتظر إنتاج فيلم هوليوودي ضخم ينقل إلى الناخبين العاديين الأثر الحقيقي لحرب الطائرات المسيّرة، على غرار فيلم «الأجنحة» الصادر عام 1927، الذي كان من أوائل الأفلام التي عرّفت جمهوراً واسعاً بأهمية الطائرات العسكرية. لكن ضعف الوعي الشعبي بالطبيعة المتغيرة للحرب لا يبرر حالة اللامبالاة التي يبديها القادة الغربيون.